الاغتراب النفسي و الجسدي في قصيدة "يا سواد العين" للأميرعبد القادر الجزائري : قراءة وجدانية[1]

د. فهد سالم خليل الراشد
باحث لغوي – الكويت

ملخص

إن الهدف من هذه الدراسة هو الوقوف على مواطن الجمال الوجداني الإنشائي لقصيدة الأمير **"يا سواد العين"** بعيدا عن منهجية علوم البلاغة (علم المعاني، علم البيان، علم البديع) وعلوم اللغة (علم الأصوات، علم الصرف، علم النحو، علم الدلالة، علم الإشارة). إن الغاية المرجوة من هذا العمل هو المشاركة الوجدانية لما مني به الأمير من حزن عميق جراء فراق الأهل والأصدقاء، وذلك بالغوص في أغوار نفسية الأمير لتصوير خلجات نفسه وأستكشف ذلك الإنسان العطوف الحنون الصادق في ثنايا أبيات قصيدته، ونتعرف على ذلك الأب والأخ وابن العم والحبيب والصديق في شخص الأمير.

الكلمات الدالة : الأمي، الاغتراب النفسي، اللوحة الفنية، يا سواد العين، الوجدان.

1 – يعرف الأمير بنفسه قائلا: **"** أنا عبد القادر بن محي الدين بن مصطفى بن المختار بن عبد القادر بن أحمد بن محمد بن عبد القوي بن يوسف بن أحمد بن شعبان بن محمد بن إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن فاطمة الزهراء بنت محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوجة الإمام علي بن أبي طالب بن عم الرسول. كان أجدادنا يقطنون المدينة المنورة و أول من هاجر منهم هو إدريس الأكبر الذي صار سلطانا للمغرب وشيد مدينة فاس. فتطور نسله وتفرق أبناؤه ومنذ عهد جدي نزلت عائلتنا في غريس قرب مدينة معسكر. وأجدادي مشهورون في الكتب والتاريخ بعلمهم وتقوى الله **"** الأمير عبد القادر – ملاحظة : منقول عن النصر الفرنسي . انظر : كتاب الأمير عبد القادر – ملحمة الحكمة ص 14 .

منذ أن تمت مبايعة [2] الأمير عبد القادر وهو في سن الخامسة والعشرين، حمل هموم شعبه وأصبح مسؤولا[3] عن رعية تتوسم به خير منقذ من شر المستعمر الفرنسي؛ فهي ليست بالسن الكبيرة، إن هذه المسؤولية أمانة في عنقه فإما أن يكون أو لا يكون! وكيف يكون وقد شحت الموارد، وقلت الحيلة، وتكالبت عليه الظروف لتنهش من لحمه الغض؟!

القصيدة

قصيدة "يا سواد العين"[4] تتكون من عشرين بيتا، قسمتها على سبع لوحات فنية: اللوحة الفنية الأولى: تضم ثلاثة أبيات، و اللوحة الفنية الثانية: تضم أربعة أبيات، واللوحة الفنية الثالثة: تضم ثلاثة أبيات، واللوحة الفنية الرابعة: تضم ثلاثة أبيات، واللوحة الفنية الخامسة: تضم بيتين اثنين، واللوحة الفنية السادسة: تضم ثلاثة أبيات، واللوحة الفنية الأخيرة تضم: بيتين اثنين .ويرجع هذا التقسيم إلى تجانس الأبيات وحسن الانتقال الوجداني. ثم الخاتمة التي خصصتها لأولى الصحف والجرائد التي نعت وفاة الأمير. وبعد ذلك الإحالات وثبت المصادر والمراجع.

2 – نص عقد البيعة العامة:
بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي جعل نصب الإمام من مهمات الدين لتصان به النفوس والأموال +وتجتمع كلمة المسلمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، وعلى آله وأصحابه أجمعين ، وبعد : لقد قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إن الله يحمي بالسلطان مالا يحمي بالقرآن ، هذا في الزمان الذي فاض فيه العدل ، ونضب فيه الجهل ، فما بالك بالزمان الذي كثر فيه الباطل وانتشر وخفي فيه الحق ولم يظهر له أثر حتى أن أعداء الله الكافرين ملكوا كثيرا من بلاد الإسلام وتشتت الكلمة واختل النظام ولم يجد الناس لقتالهم سبيلا . ولا يكون للجهاد دليلا ، فلجأوا إلى الله تعالى وسألوه أن ييسر لهم من يقوم بأمر دينهم ، فما وجدوا من تتفق عليه كلمة أهل الحل والعقد سوى السيد محي الدين بن مختار بكماله وكثرة ما عنده من الأعوان والأنصار فطلبوا منه أن يبايعوه على السمع والطاعة، واعتذر إليهم لكبر سنه . فأتاه بعض من علماء غريس ، وهم من الصالحين ، فقالوا له :" إن أولياء الله تعالى قد اتفقوا على نصب ولدك ـ عبد القادر ـ لنصر دين الله ، ورأى أن ولده مستعد لهذا الأمر ، ووافقهم على نصبه ونصرته لكونه ذا حزم وعزم وشجاعة وعقل سليم ، فاجتمع أهل الحل والعقد وبايعوه من غير طلب منه .فحضر للبيعة جميع أهل غريس وأعلنوا جميعا بطاعته ونصرته والرعاية له ، بحيث أنهم يحمونه بما يحمون به أنفسهم وأموالهم ، وأن ينصروه نصرا مؤزرا ، واتفق علماء الإقليم على بيعته وطاعته ولم يخالف منهم أحد ، وهم في حال طوعهم واختيارهم فعلى من بايع أن يبذل جهده في نصرته وعضده لقول الصادق الأمين :" الدين النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين ، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه ".وحضر ما ذكر من العلماء ، السيد محمد بن حواء بن يخلف ، والسيد محمد بن عبد الله المشرفي ، والسيد عبد الرحمن بن الحسن الدحاوي ، وكافة أبناء +سيد أحمد بن علي وجميع علماء غريس وأشرافهم ، لهذه البيعة ، وحضر كاتبه ، محمد بن عبد القادر ، عامله الله بلطفه . في رجب 1248 هـ الموافق ل 27 نوفمبر 1832 م

3 – جاء في ترجمته بكتاب « تعريف الخلف برجال السلف لأبي القاسم الحفناوي » : وفي سنة 1248 بايعه أهل الجزائر وولوه القيام بأمرهم، وذلك بعد أن طلبوا مبايعة والده فاعتذر عن قبولها، فلما ألحوا عليه أشار عليهم بمبايعة ولده المشار إليه لما رأى منه من كفاءة بما يتعلق بهذا الأمر الجلل، ولما اشتمل عليه من الأوصاف الجميلة التي تجعل النفوس الأبية خاضعة له ومنقادة إليه .. فلما بايعوه قام بالأمر في تلك الأقطار، وأحسن السياسة في رعيته مقتفيا آثار أسلافه السادة الأدارسة الذين كانوا ملوكا في المغرب الأقصى و الأوسط والأندلس، فتمكن حبه في قلوبهم وبذلوا نفوسهم في طاعته وامتثال أمره، وفي مدة إمارته ضرب سكة نقود سماها المحمدية، وأنشأ معامل للأسلحة و الأدوات الحربية وملابس للجند، وظهرت منه شجاعة خارقة للعادة، تحدث بها القاصي والداني، ودونها أصحاب التواريخ وكان يتقدم الجيش بنفسه ولا يبالي « 2/ 140 .

4 –انظر : الأمير عبد القادر – ملحمة الحكمة ص 20 ، وقد ذيلت بالآتي : " ذهب أهل الأمير وأصحابه أغلبهم إلى المغرب في سنة 1843 ، فكتب بهذه المناسبة القصيدة المشهورة (يا سواد العين) ويذكر فيها بالخصوص إخوته الثلاثة : سعيد ومصطفى وحسين .

كان الاعتماد الأكبر في قراءة هذه القصيدة على الوجدان، وفي النادر الغالب اعتمدت على المصادر والمراجع .

اللوحة الفنية الأولى

يطلق الأمير في هذه اللوحة الفنية النداء تلو النداء، نداء يركب فيه الأشياء الجميلة فيضيفها إلى ما هو أجمل منها، نداء يستدعي به حاجة روحية، أو قل هو أنين رجل غمرته مشاعر دافئة تجاه أهله وناسه الذين رحلوا عنه وفارقوه إلى ديار المغرب؛ فرأى فيهم أغلى شيء في الأشياء، فأغلى من العين هو سواد العين، وما فائدة الجسد بلا روح، والأرض تختال ضاحكة في فصل الربيع، وماذا بعد بيوت عزيزة طويلة قوية يدخرها المرء لوقت الحاجة إليها. إن في وجودهم قرب الأمير يراهم يوميا ويتحسسهم بحرص الأب المعيل سعادة لا نظير لها، ولكن شاءت الأقدار أن يرحلوا عنه ويتركوه وحيدا متقوقعا بذكراهم العطرة، هو بذلك يرمي اللوم على الدهر شاكيا متبرما حيث يقول:

يا سوادَ العينِ يا روحَ الجسدْ ••••• يا ربيعَ القلبِ يا نعمَ السـندْ
كنت لي قرّة عينٍ وبـــها ••••• هام قـلـبي لا بمالٍ و ولـــدْ
فـرمى الدهرُ بعيني أسهـماً ••••• مـذ نـأيْـتُـم لا أرى فيها أحـدْ

اللوحة الفنية الثانية

في هذه اللوحة يصف الأمير الحواس بشكل متناه ودقيق، فهو يبث الشكوى، ويذرف دموع الحزن والألم، فإن نفد الصبر فإن الشوق والحنين واللهفة على فراق الأحبة مازال قائما، لقد حرقت شمس الفراق كل ربيع مخضر في روض الأمير، ووهن العظم منه، فلم يعد يقوى على تحمل هذا البعد، لئن كان الأمير فارسا مغوارا جلدا صلبا في أرض المعركة صنديدا لا يبارى أمام الأعداء، فهو في الوقت ذاته أب عطوف وأخ حنون وابن عم حريص على أواصر الدم واللحمة الوطنية، وكل هذا رسمته أنامل الأمير الرقيقة في لوحة فنية نابضة بدفء المشاعر قائلا:

أ يـروقُ الطـرفَ شيءٌ بعدَكم • • • لا وربِّ البيـتِ في هـزلٍ وجـدْ
مـذ تـرحلْتُـم أذبـتُـم مهجـتي • • • ودمـوعـي فـائـضاتٌ من كـــمدْ
فنى الصبرُ ولـم يفـنَ الجـوى • • • ما أراه فانياً حـــتى الأبـــدْ
و ذوى ما كان رطبـــــاً يانعـاً • • • و وهـى العـظم ولم يـبق الجـلـدْ

اللوحة الفنية الثالثة

غربة نفسية مؤلمة تغتال أنس الأمير، وتطفئ بصيص نور التفاؤل، إنه ليل طويل لا ينجلي، ورتابة مملة بائسة، ولحظات يائسة تستعمر حياة الأمير، فيعيش وحيدا كئيبا، فهو لا يظهر ما في نفسه من غم وهم لأنه لا يريد أن يشغل الناس بهمومه وذلك إحساس منه بأن لكل إنسان همومه ومشكلاته؛ فالأمير لا يريد أن يشغل الناس بهمه رحمة وشفقة بهم، ولكن حزن الأمير ومعاناته لا يعلم بها إلا علام الغيوب الذي يعلم السر وأخفى، وفي هذا يجسد الأمير تلك الحالة النفسية المزرية بلوحة سوداوية مأساوية قاتمة قائلا:

مذ تـواريـتُـم تـوارى فـرحـي ••••• ما يسـرُ القـلـبُ فـي أخذٍ و ردْ
فـحـياتي بعـدَكم مـذ غبـتُـم ••••• مـن مـجازٍ مـرسلٍ عـندي يعدْ
طـــــال ليلي يا أحبَّاي ولا ••••• يعلمُ الحالَ سوى ألفردِ الصمد

اللوحة الفنية الرابعة

يعود الأمير إلى المناجاة مرة أخرى، مناديا أخاه سعيد الذي يرى فيه توأمه الروحي، وينادي أخاه مصطفى الذي يراه بلسما شافيا لداء الاغتراب الذي أخذ من الأمير كل مأخذ، ثم ينهار الأمير أمام حب الحسين مكررا شوقه لرؤيته، فمهما انفعلت أو تأثرت جوارح الأمير إلا أنه في آخر المطاف رجل مؤمن بقضاء الله وقدره، ولكن ماذا يملك الأمير أمام قلب كسير لا يقوى على فراق الأحبة، وهو هنا يذكرنا بموقف النبي صلى الله عليه وسلم حينما توفي ابنه إبراهيم قائلا : "إن العين تدمع و القلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضي ربنا وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون"[5]. وهذه الصورة حاول الأمير أن يحركها من ركود الحزن والألم إلى روح الشوق والحنين قائلا:

كم أنـادي حـين يـبدو صبحُه ••••• يا سعيدُ هـل خيالٌ لـي يَـرُدْ
فَـتُـرَدُّ الروحُ للجســـم ويـا ••••• مصطفى هل من دواءٍ للكمدْ
شاقني حبُّ الحســـينِ شا قني ••••• ما لحكمَ اللـهِ في الخلق مـــردْ

5 – حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ حَسَّانَ حَدَّثَنَا قُرَيْشٌ هُوَ ابْنُ حَيَّانَ عَنْ ثَابِتٍ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ دَخَلْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى أَبِي سَيْفٍ الْقَيْنِ وَكَانَ ظِئْرًا لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِبْرَاهِيمَ فَقَبَّلَهُ وَشَمَّهُ ثُمَّ دَخَلْنَا عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ وَإِبْرَاهِيمُ يَجُودُ بِنَفْسِهِ فَجَعَلَتْ عَيْنَا رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَذْرِفَانِ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ يَا ابْنَ عَوْفٍ إِنَّهَا رَحْمَةٌ ثُمَّ أَتْبَعَهَا بِأُخْرَى فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ " رَوَاهُ مُوسَى عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ الْمُغِيرَةِ عَنْ ثَابِتٍ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . انظر : صحيح البخاري – فهرس الجنائز.

اللوحة الفنية الخامسة

تبدو حالة اليأس واضحة جلية في نفس الأمير، فها هو يتساءل بحرقة ومرارة مستنكرا عودة الحياة إلى روحه بعد أن فارقه الأحبة ولم يبق له سوى ذكرى من السكنات واللمسات يستشعرها في وجدانه، تبعث فيه أمل اللقاء بين الفينة والأخرى، إنه مجرد طيف الذكرى يعيد للأمير حيويته المشرقة، وتينع روحه في بستان النضارة والجمال الذي يترآى له في وجه الأحبة، ويبض جسده، وكل هذا يصوره لك في بيتين اثنين قائلا:

هل يجودُ الدهرُ من بعد النوى ••••• باقترابٍ يحيي ميتاً لم يعـــدْ
فـإذا لـي تـمَّ مـا أمَّلْـــتُه ••••• عـاد إنساني وروحي للجسدْ

اللوحة الفنية السادسة

وتهفو نفس الأمير لذوي القربى تيمنا بقوله تعالى: "وذوي القربى .. "[6] –ولاسيما– أبناء عمومته الذين هم من صلبه ونسله، ليقر صلة الرحم، وهو بذلك يعلم جد العلم إن عزة المرء إنما بأهله وبني قومه، ويختصر كل حبه وشوقه ومشاعره تجاههم بثلاث كلمات (أنتم : ذخري وكنزي والسند)؛ فلا أبْـلَـغُ من هذا الذي جادت به قريحة الأمير الطاهرة، والأمير هنا يبسط راحتيه الكريمتين مصافحا أقاربه طالبا منهم النصرة والعون قائلا:

يا ذوي القربى قريبـاً من أبٍ ••••• أنتمُ ذخـري وكـنزي والسـندْ
ليّ كونوا مثل ما كـــان الأولى ••••• سلفـوا لي أهل سعي لا يُـردْ
فـإذا ما أقبلت فلتبذلـــــوا ••••• وإذا ما أدبـــرت فـرضوا بـود

اللوحة الفنية الأخيرة

ويتسامى الأمير فوق آلام الوحدة، ويسدل الأمير الستار على نفحة مشاعره التي أيقظت كل ساكن فيه، وتاقت روحه إلى أخوته وأبناء عمومته ليضفي عليهم تلك الإحساسات الدافئة، حب وسلام أبدي إلى أحبابه الذين بعدوا عن روحه وجسده وترك في محنة الاغتراب؛ فحب الأمير لا يخفت و لا يتغير ولا يضعف أبدا، بل دائم التدفق والعطاء إلى ما لا نهاية، وحب الأمير لا يقف عند أشخاص

6 – قال تعالى: "وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ" (البقرة – 83) . وقال تعالى: "وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا" (النساء – 36). و قال تعالى: "وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا" (الإسراء – 26).

معينين، بل يشمل كل الأحبة في أي مكان وزمان، فالأمير هنا حتى في حبه كان منصفا لا يميز أحدا على أحد، حب ينحني به ويعطفه على كل الأحبة، وهذا ما أقره في ختام هذه القصيدة قائلا:

وعليكـم من سـلام طـيبٍ ••••• طيبٍ يترى إلى غـير أمـــدْ
يشـمـلُ الأحبابَ أنَّـى قد ثووا ••••• كلُّ حُـبٍّ لي هو الصنو الأودْ

النتيجة: مما لا شك أن الشكوى تكشف لك مواطن الضعف عند الإنسان، والأمير لم يكن ضعيفا يوما إلا في حبه لأهله وأقاربه وبني قومه؛ فحينما رحلوا عنه ظلت ذكراهم عالقة في فؤاده، وصورهم ماثلة أمام ناظريه، وهو بذلك قد جعل من الليل صديقا حميما ورفيقا مخلصا لا يبخل عليه في الوقت الطويل الممتد، ليعيش معهم ويستحضرهم بخياله وكـأنهم بالقرب منه، وحين تتبخر هذه اللحظات ويوقن الأمير بالحقيقة يبادره اليأس مرة أخرى فينعكس على شعره، إنه يختزل مشاعر الاغتراب – وإن كان في بلده وبين قومه – لينثرها دافئة ذات شجن تقشعر الجلود حين سَمـَاعها.

الخلاصة

جاء في كتاب "التواصل الثقافي بين الجزائر وتونس"[7] خبر وفاة الأمير عبد القادر على النحو الآتي: "عندما توفي الأمير المجاهد عبد القادر الجزائري في سنة 1883، لم يمض على احتلال تونس من طرف الاستعمار الفرنسي سوى عامين فقط، وكانت جيوب المقاومة ما تزال تناضل في بعض الجهات لدفع الاحتلال وإبعاده شبحه وتحدي المستعمر رغم توقيع معاهدة الحماية من طرف باي تونس. وفي هذا الجو المشحون بالحزن والدماء والتوتر، نشرت الجريدة الوحيدة في تونس، وهي جريدة (الرائد التونسي) التي كانت تصدر تحت رقابة سلطات الاحتلال خبر نعي المجاهد الجزائري بعد خمسة أيام من وصول الخبر عبر التلغراف. ذلك أن وفاة الأمير عبد القادر كانت يوم الأحد 20 رجب 1300 هـ، الموافق الخامس عشر من شهر ماي 1883 م، وكان نشر الخبر يوم الخميس 24 رجب، الموافق للتاسع عشر من شهر ماي 1883 م، وهو الموعد الأسبوعي لصدور الجريدة، أي أن خبر الوفاة صدر في أول عدد منها بعد الوفاة مباشرة . . ووضع تحت عنوان (نزيل دمشق وفقيدها)، وصيغ صياغة توحي بالأسف والتفجع على فقده مع وصف للجنازة وتنويه بمقام الفقيد، وإشارة إلى مشاركة قنصل فرنسا بدمشق حفل التشييع .. لئن لم تشر الجريدة إلى محرر الخبر فإن مما لاشك فيه أن محرره هو محرر الرائد

7 – كتاب التواصل الثقافي بين الجزائر وتونس تأليف : محمد صالح الجابري .

آنذاك وهو الحاج حسن لازاغلي الجزائري الأصل الذي لا شك أنه يعرف مكانة الفقيد، فصاغ الخبر صياغة أدبية يغلب عليها السجع والاقتضاب والدقة في وصف مآثر الأمير وخصاله الأدبية والعلمية والسياسية إذ يقول الخبر: "في يوم الثلاثاء الماضي الثاني والعشرين من رجب الأصب فاجأتنا الأنباء التلغرافية بما لا راد له ولا ملجأ لأحد منه، أمر محتوم، وطائر حول كل ابن أنثى يحوم، من انتقال علم المروءة والشجاعة والديانة، والعلوم والكرم والأمانة، المولى الأمير الجليل السيد عبد القادر الجزائري . وفي يوم الأحد الفارط شيع جنازته أكرم الله نزله السواد الأعظم من الأهالي، البالغ عددهم نحو الستين ألف نفس، ما بين وجهاء القوم وأصحاب المناصب الرفيعة والخطط العالية. وكان جناب قنصل فرنسا أمام جنازة الفقيد الذي قضى، رحمة الله عليه"[8].

وينقل لنا خبر آخر قائلا: "بعث إلينا الحازم المصيب، والبارع الأديب، ذو الرأي الحصيف، المبرز في صناعة التأليف، الشهم الأعز المنتخب جناب الموسيو ماشويل، رئيس إدارة المعارف التونسية برسالة غراء تضمنت رثاء المقدس المبرور السيد عبد القادر الحسني فأجاد وأفاد وإليك نصها:

لا يملك الطـرب المحـزون منطقه •• ودمــعه وهما في قبضـة الطـرب
غدرت يا موت كم أفنيت من عدد •• بمن أصبت وكم أسكت من لجب
تعثرت به في الأفـواه ألسـنها •• والبرد في الطرق والأقلام في الكتب

وقد أغرق خبر وفاة الأمير الحاج عبد القادر جميع الأنام في الأحزان، وهطلت بالدموع عند سماعه الأجفان، وأسبل على الوجوه غطاء الأشجان، فقد سار إلى رحمة ربه من شاع صيته في جميع الآفاق، بسبب سطوته وبإيفائه الوعد وحسن الأخلاق، وكانت الناس قاطبة تستعظمه وتوقره، كما يوقر كل من كان ذا همة عالية وأراد الخير لبلاده، ولم يفعل ذلك طمعا في حب الدنيا ويخفق قلب كل شخص فرنساوي عند نطق اسم ذلك السيد لأنه يتفكر تلك الحروب الشديدة الواقعة بين آبائه وهذا البطل الصنديد الذي قاتلهم بشهامة ما دام موقنا أن الله ناصره بالقتال ويتفكر أيضا إنجازه الوعد من اليوم الذي ظن فيه أنه تعالى ينهاه عنه وكذلك يتذكر شجاعته لما أجار بدمشق خلقا كثيرين من النصارى"[9].

وأخيرا نذكر هذا النعي: "كنا نشرنا بالعدد الفارط ما حمله إلينا السلك البرقي مكن نعي الأمير الجليل السيد الأمير عبد القادر الحسني، ولعمري لأنها لرزية

8 – المصدر نفسه ص 77 و 78 .

9 – المصدر نفسه ص 81 و 82 .

ألبست منار الشجاعة حدادها، وبلية قدحت على علم العلم والفضل زنادها، وخطوب تركت كؤوس الشجن تدار، على جهابذة المدن والأقطار، فحق للعيون أن يهطل صبيبها، والقلوب أن يسعر لهيبها فيا أسفا وهل يقضي الأسف دين التلف. كان برد الله ثراه من الراسخين في العلم، طويل الباع في الفقه والحديث والنحو وعلوم شتى. أما القريض فهو قائده من عنانه، ومبدع أحكام بيانه، وله قصائد بديعة الإنشاء تصرف في سبك معانيها بما شاء، فمن ذلك قصيدة حماسية:

فنحن أكاليل الهداية والعلى ... ومن نشر علياهم أولي المجد قد طوى
ونحن لنا دين ودنيا تجمعا ... ولا فخر إلا ما لنا يرفع اللوا
مناقب مختارية قادرية ... تسامت وعباسية مجدها احتوى
فإن شئت علما تلقني خير عالم ... وفي الروع أخباري غدت توهن القوى
لنا سفن بحر الحديث به جرت ... وخاضت فطاب الورد ممن به ارتوى
وإن رمت فقه الأصبحي فعج على ... مجالسنا تشهد لداء العنا دوا
وإن شئت نحوا فالحنا تلق ماله ... غدا يذعن (البصري) زهدا بما روى[10]

معاني الكلمات في القصيدة

سواد العين: حدقة العين (ساد)، باب السين فصل الألف والدال، معجم الوجيز ص 327.
السند: الاعتماد والعون (سند)، باب السين فصل النون والدال، الوجيز ص 325.
قرة عين: السرور والرضى (قرّ – قَرَر)، باب القاف فصل الراء والراء، الوجيز ص 496.
هام: شغف حبا (هام)، باب الهاء فصل الألف والميم، الوجيز ص 657.
نأيتم: بعدتم (نأى)، باب النون فصل الهمزة والألف المقصورة، الوجيز ص 598.
يروق: يُعجب (راق) باب الراء فصل الألف والقاف، الوجيز ص 282 .
الطرف: تحرك الجفن والعين (طرف)، باب الطاء فصل الراء والفاء، الوجيز ص 389.

10 – لمصدر نفسه ص 85 و 86

هزل: مزح من المزاح أي اللعب والضحك (هزل)، باب الهاء فصل الزاي واللام، الوجيز ص 649 .
جدّ: عكس الهزل وهو الاجتهاد بالأمر أو الموضوع (جد – جدد)، باب الجيم فصل الدال و الدال، الوجيز ص 94 .
أذبتم: أتعبتم وأضعفتم (ذاب)، باب الذال فصل الألف والباء، الوجيز ص 247.
مهجتي: المهجة من كل شيء خالصه وهي دم القلب ما يعني أغلى سيء في الأشياء (امتهج – مهٍ – مهج)، باب الميم فصل الهاء والجيم، الوجيز ص 593 .
فائضات: الامتلاء حتى الطفح (فاض)، باب الفاء فصل اللف والضاد، الوجيز ص 486.
كمد: الحزن الشديد المكتوم (كمد)، باب الكاف فصل الميم والدال، الوجيز ص 541.
فنى: انتهى وجوده (فنى)، باب الفاء فصل النون والألف المقصورة، الوجيز ص 482.
الجوى: شدة العشق والحزن (جوى)، باب الجيم فصل الواو والألف المقصورة، الوجيز ص 128.
ذوى: بمعنى ذبل ويبس وضعف (ذوى)، باب الذال فصل الواو والألف المقصورة، الوجيز ص 248.
يانعا: المخضر والثمر الناضج (ينع)، باب الياء فصل النون والعين، الوجيز ص 687.
وهى: ضعف (وهى)، باب الواو فصل الهاء والألف المقصورة، الوجيز ص 683.
الجلد: الصلب القوي (جلد)، باب الجيم فصل اللام والدال، الوجيز ص 110.
تواريتم: استتر (ورى)، باب الواو فصل الراء والألف المقصورة، الوجيز ص 666.
مجاز مرسل: (مجاز) المعبر (مجاز مرسل)، في علم البيان من علوم البلاغة هو: استعمال اللفظ في غير دلالته المشهورة لعلاقة ما، ويقابل الحقيقة (جاز)، باب الجيم فصل الألف والزاي، الوجيز ص 127.
شاقني: الاجتذاب والحب والرغبة (شاق)، باب الشين فصل الألف والقاف، الوجيز ص 355.
مرد: الرجوع (رد – ردد)، باب الراء فصل الدال والدال، الوجيز ص 260.
يجود: السخاء والعطاء والكرم (جاد)، باب الجيم فصل الألف والدال، الوجيز ص 125.

النوى: البعد (نوى)، باب النون فصل الواو والألف المقصورة، الوجيز ص 641.
ذخري: الجمع والحفظ لوقت الحاجة إليه (خذر)، باب الذال فصل الخاء والراء، الوجيز ص 243 .
أدبرت: أعرضت وذهبت (دبر)، باب الدال فصل الباء والراء، الوجيز ص 220.
بود: (ود) أحبه بحب (ود – ودد)، باب الواو فصل الدال والدال، الوجيز ص 663
يترى: من التواتر واحد تلو الآخر (وتر)، باب الواو فصل التاء والراء، الوجيز ص 659.
أمد: الغاية والنهاية (أمد)، باب الهمزة فصل الميم والدال، الوجيز ص 24.
ثووا: أقاموا واستقروا (ثوى)، باب الثاء فصل الواو والألف المقصورة، الوجيز ص 89.
الصنو: المثيل والنظير (صنو)، باب الصاد فصل النون والواو، الوجيز ص 372.
الأود: العطف والانحناء (أود)، باب الهمزة فصل الواو والدال، الوجيز ص 29.

المراجع

1. مجموعة مؤلفين، (2007). الأمير عبد القادر، ملحمة الحكمة منشورات زكي بو زيد، الجزائر.
2. الشيخ أبو القاسم محمد الحفناوي، (1991). تعريف الخلف برجال السلف، تقديم أ.د محمد رؤوف القاسمي الحسني، الأنيس، سلسلة العلوم الإنسانية.
3. محمد صالح الجابري، (2007). التواصل الثقافي بين الجزائر وتونس، دار الحكمة –الجزائر.
4. مجموعة مؤلفين، (2004)، المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية – القاهرة.

موقف محمد بن عبدالكريم الخطابي وعلال الفاسي من مباحثات إيكس ليبان (غشت 1955)

أ. د. زكي مبارك
أستاذ باحث–المغرب

ملخص

في صيف عام 1955، جرت مفاوضات تعتبر تاريخية بين السلطات الفرنسية في إكس ليبان (باريس) وبعض أطراف الحركة الوطنية في المغرب الأقصى ، أدت نتائجها إلى إسترجاع المغرب الأقصى لإستقلاله وعودة الملك محمد الخامس إلى العرش. وقد أثارت نتائج هذه المفاوضات معارضة شخصيات فاعلة في الحركة الوطنية المغربية، داخل المغرب وخارجه وفي مقدمتها الزعيمان الكبيران الأمير عبد الكريم الخطابي قائد ثورة الريف وعلال الفاسي رئيس حزب الاستقلال. مع العلم أن هذا الأخير كان طرفا في هذه المفاوضات.

إن هذه الدراسة هي محاولة لإظهارموقف الأميرعبد الكريم الخطابي وعلال الفاسي من هذه المفاوضات وأسباب معارضتهما لها .

الكلمات الدالة: مباحثات إيكس ليبان، الكفاح، الاستقلال، التبعية.

1. مباحثات إيكس ليبان: دواعي الانعقاد

شكلت مباحثات إيكس ليبان [1] محطة بالغة الأهمية في تاريخ كفاح الشعب المغربي لاسترجاع حريته واستقلال بلاده. فهذه المباحثات، في رأي بعض القادة السياسيين، ومن الذين شاركوا فيها، أو تتبعوا أطوارها من بعيد، لم تكن في واقع الأمر سوى مجرد مصيدة أو فخ سياسي سقطت فيه قيادات وطنية عن حسن نية، أو حسب تحليلات خاطئة ومتسرعة، فكان من نتائجها الملموسة إجهاض الثورة المغربية وهي في طور المخاض والتبلور، وحصول المغرب على استقلال أطلقت عليه عدة أطراف سياسية ووطنية أو صافا ونعوتا من بينها: استقلال زائف، وممنوح، وشكلي، ومنقوص، إلى غير ذلك من النعوت والأوصاف[2]

أما دواعي انعقاد هذه المباحثات فتعود أسبابها الجوهرية إلى نفي محمد الخامس في 20 غشت 1953م، وإصراره على عدم التنازل عن شرعيته في الملك، والتمسك

1 – حول هذه المباحثات نشرت "ملفات من تاريخ المغرب» في عددها الأول والثاني لسنة 1996، محاضر الجلسات بكاملها باللغة الفرنسية.

2 – قدم المهدي بن بركة تحليلا ونقدا جريئا لمباحثات إيكس ليبان في كتابه "الاختبار الثوري» صفحة 30 و 31.